دور النصارى
في اقرار الخلافة الاموية

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف

هذه محاضرة ألقيت في نادي الشبيبة الكاثوليكية في بيروت ، وفي طرابلس — ولما حالت ظلاصة ابحاث متشعبة غايتها ان تعرض النتائج التاريخية على اسلوب البسط والتقريب ، رأينا ألا نرهق حواشيها بالتعاليق التامة ، فلم نذكر من المصادر الا ما كان ضرورياً لتأييد رأي جديد ، او لازالة استغراب قد يعلق بذهن من شق على نفوسهم غرائب بعض « الروايات التاريخية » ، محيلين القراء على اشهر الكتب التاريخية في الموضوع ، مذكورًا اهمها في آخر هذا البحث.

وهل للنصارى من دور في إقرار خلافة اسلامية ؟

نعم ! ودور مهمّ خلّد أثره التاريخ ، بعد ان اشاد بذكره شعراء العرب من نصارى وغير نصارى.

في هذا الدور تجلّت اروع صفحات الاتحاد الوطني ، كما سطع الدليل الواضح على ما يفيده التعاون بين الطوائف والعناصر ، اذا ما رافقه الاخلاص في حبّ الوطن الواحد.

ولا بدّ من القول اولًا اننا نفهم بلفظة « نصارى » ما فهمه بها كتّاب العرب الاقدمون[1] ، فميّزوا بين النصارى والروم اي مسيحي بيزنطية ، كما ميّزوا بينهم وبين الفرنجة اي مسيحي الغرب. فالنصارى هم مسيحيّ الشرق من

---

١) كالجاحظ مثلًا ، وهو يميّز بين النصارى والروم ، فيقول في تفصيل انواع العالم : « . . . وللخلفاء عمّة ، وللقضاة عمّة . . . وللروم والنصارى عمّة . . . » (البيان والتبيين ، طبعة السندوبي ، مصر ، ١٩٢٧ ، ٣ : ٦٥) ويقول : « ولو علمت العوامّ ان النصارى والروم ليست لهم حكمة . . . وليس (ارسطاطاليس) برومي ولا نصراني . . . وليس (بطليموس) برومي ولا نصراني . . . (الردّ على النصارى ، في ثلاث رسائل ، طبعة J. Finkel ، مصر ١٩٢٧ ، ص ١٦) — واطلب A. S. Tritton, *Naṣārā*, dans *Encyclop. de l'Islam*, III, 906

العائشين خاصة في ظلّ الدولة الاسلامية ، سواء أكانوا من مغاربة الآراميين او مشارقتهم ، يعاقبة او موارنة او سريانًا كاثوليكيين ، نساطرة او كلدانًا او ملكيين.

ولا بدّ ثانيًا ، قبل ان نعمل على تحديد دور النصارى في العهد الاموي ، من ان نلقي نظرةً سريعةً على ما سبق هذا العهد من حوادث جليلة غيّرت وجه الشرق الادنى دينيًا ومدنيًا. الا وهي حوادث الفتح العربي.

يجب ان نجتهد في التجرّد عن الاميال والاهواء والنزعات الجنسية والدينية ، فننظر بعين الصراحة الى هذه الحوادث ، ونقيسها بمقياس التاريخ العادل . فلا نتعصّب للعرب ، ولا على العرب. ولم يخلُ شعبٌ من نقائص وفضائل.

ان ما وقر في اذهاننا من ذكر الغزوات البربرية في العصور القديمة ، ووصف الاكتساحات المغولية والتترية والتركية في العصور المتوسطة ، وما نعرفه من بلايا الحروب العصرية ، يمثّل لنا فظائع واهوالًا في الحضارات المضنكة ومظاهر التخريب والتدمير ، نطبّقها ، دون انتباه ، على الفتوحات العربية في الشام.

هذا من جهة . ومن جهة اخرى ترانا آخذين ، دون نقد ، باقوال مؤرّخين كتبوا بعد هذه الحوادث باكثر من قرن ، ولم يخلوا من نزعات وميول . فمن عبّاسيين وعلويين الى حجازيين وعراقيين ... ولا يتسع بنا المجال لتحديد هذه النزعات وتفصيل مراميها ؛ انما نكتفي بالاشارة الى وجودها .

حتى اننا نخال العرب — اذا ما حثونا ذاكرتنا بهذه الروايات — نظّموا خطّة الفتح في الحجاز. ونفّذوها على ادق ترتيب ، كما ينفّذ قوّاد العصر خططهم الحربية. فجمعوا الجيوش المنظّمة ، وساروا الى اليرموك ، فصادفوا ، في انتظارهم ، جيشًا بيزنطيًا منظّمًا كذلك . وقد بلغ بعدده بعض المتقصدين بالارقام ٢٠٠٬٠٠٠ فقط ، وارصله غيرهم الى ٦٠٠٬٠٠٠ . فانتصر عليه العرب ، ولم يبلغوا الثلاثين الفًا — ولا يجوز ان نعجب بالأمر ! — ثم اندفعوا يكتسحون بلاد الشام...

وهنا يتفنّن المتعصّبون على العرب فيقولون ان المسلمين اعملوا السيف في انحاء الشام ونهبوها واحرقوا بعض قراها ، واجبروا الناس على الدين بالاسلام. فهجرها اهلها ، فتناقص عددهم من خمسة عشر مليونًا الى خمسة ملايين.

كلها روايات آخذة بنصيب وافر من الاسطورة.

من الحقّ ان كثيرين من سكان هذه البلاد هجروا مدنهم وقراهم على اثر الفتح العربي. الّا ان عددهم لا يتجاوز الآلاف. ومن الحقّ انه هلك عدد قد يكون كبيراً من الشاميين. وهو امر طبيعي في ايّ بلد كان مسرحاً للمعارك.

امـا القول بان المسلمين الفاتحين اعملوا السيف في سكان الشام، او اضطهدوهم واجبروهم على الدين بالاسلام، فهو اقرب الى الخيال منه الى الأمر الواقع. والواقع ان امراء المسلمين في صدر الدولة الاموية كانوا يعيشون على اتمّ الوفاق مع النصارى، سكان البلاد الاصليين، كما سنفصله في هذا البحث.

وهناك وهم آخر يجب تبديده قبل الكلام عن معونة النصارى للمسلمين في اقرار خلافتهم. هو ما استخرجه بعض المستشرقين، وفي طليعتهم دي گويه (de Goeje)، اذ طبّقوا نظرياتنا العصرية في سموّ العنصر البلدي، وما يدعو اليه من نزعات قومية، على العرب قبل الفتوح. فاستنتجوا ان عرب الحجاز أتوا سورية فاتحين ليخلّصوا «اخوانهم عرب الشام» من نير الاجنبي (كذا!). ولا يخفى ان مدلولات الوطن، والعنصر، والقومية، وما اليها كانت غريبة عن اهتمام البدو في جزيرتهم، وهم اقرب الناس الى النزعة الفردية. انما وُلدت بعد ان تكوّنت الامبراطورية العربية على عهد الامويين بفضل السوريين واللبنانيين: نصارى وغير نصارى.

* * *

بقي ان ننظر بدقة الى حالة بلاد الشام وسكّانها قبيل الزحف العربي.

لم يكن في هذه البلاد ثلاثون مليوناً من البشر، كما ذكر بعض ذوي المخيّلات المولّدة. بل لم يكن فيها خمسة عشر مليوناً. ولم يكن في قيسارية — قيسارية فيلبُّس، او بانياس سورية اليوم — ٧٠٠٬٠٠٠ مدافع، و٣٠٬٠٠٠ سامري، و٢٠٬٠٠٠ يهودي، و٣٠٠ سوق يقوم بحراستها، كلّ ليلة، ١٠٠٬٠٠٠ جندي، كما ذكر البلاذري[1]، اصدق مؤرّخي الفتوح العربية قاطبةً.

١) البلاذري: فتوح البلدان (طبعة de Goeje) ص ١٤١

وأين هذه المدينة الجبّارة ، المنسعة الرقعة في الخيال، من بانياس الحقيقية، وهذه آثارها لا تزال ماثلة للعيان في عصرنا ؟ وهي ، مهما بولغ في عظمتها السابقة ، لأوضع من ان يقوم على اسوارها كل ليلة مائة الف جندي (!)

ولنقس على ما ذكر ما لم يُذكر من مبالغات رواة العرب واخباريّيهم. وقد اصبح من النافل ان تدلّ على اغفالهم اصول التدقيق الحسابي ، وعلى مجازفتهم بالارقام حتى كأنها لا تمثّل شيئاً مهمًّا في نظرهم[1].

بيد اننا اذا ما عرضنا امر هذه الجيوش ، الغازية والمدافعة ، على ما نعرفه من عدد امثالها في الحروب البيزنطية - الفارسية ، فثبت لنا ، بواسطة مؤرخي البيزنطيين ، ان الامبراطور هرقل ، لما سار بحملته الشهيرة على بلاد فارس ، لم يمكنه ان يجمع من الجنود الّا عشرة آلاف ، دُفعنا طبعاً الى التخفيض من هذه المئات من الالوف المكردسة جزافاً ، فاقتربنا من التقدير القائل ان الجيش البيزنطي اكثر ما بلغ عدده في وقعة اليرموك كان نحو ٣٠ الفاً يقاوم نحو ٢٥ الفاً من العرب[2].

وقد لا نخطئ الحقيقة اذا قلنا انه كان في مناطق سورية الجغرافية جميعها نحو من الخمسة الملايين. ولم يكونوا من « العرب الذي ينتون تحت نير الاجنبي» وينتظرون « اخوانهم » عرب الحجاز ليخلّصوهم . انما كانوا من عناصر مختلفة وطوائف متنوّعة شأنهم اليوم ، وشأنهم كل زمان.

الّا ان هناك عنصرين قويّين كانا الاصليّين في بلاد الشام ؛ وهما : العنصر الآرامي في الشمال والوسط . والعنصر الكنعاني - الفنيقي على الساحل وفي الجنوب. وليس من شك في ان الشعوب المتفرّعة عن هذين العنصرين كانت تتأثر بالعناصر الدخيلة المتسرّبة اليها من الشمال ، من ثغور جبال طوروس ، من تلك المنافذ التي دعاها الروم « بالابواب » ، والعرب « بالدروب » . كما كانت تتأثر بالعناصر العربية المتسرّبة اليها من الشرق والشرق الجنوبي . وكان ان العرب القدماء تكاثروا في تلك المنطقة فأنشأوا لهم دولة قوية في پترا او صُلع عُرفت

١) راجع حبيب زيّات : المجازفة بالارقام في التاريخ. المشرق (٣١ [١٩٣٣] ١٦١).

٢) H. Lammens, *La Syrie*, I, 56

بالدولة النبطية ، كما انشأوا دولة اخرى في تدمر بلغت أوجها على عهد زينب الزباء. ومن العرب المهاجرين النازلين في الاراضي الشامية نذكر الغساسنة ، عمّال البيزنطيين على حفارة الحدود[1]. الّا ان هؤلاء ظلّوا اعلق بالبداوة من النبطيين والتدمريّين . وهكذا القول عن سائر القبائل العربية النازلة هـذه البلاد بعد الغساسنة ، فانها على تحضّرها بعض التحضّر، وتأثّرها بالبيئة الشامية، ظلّت اقرب الى العروبة الخالصة من ارباب بترا او امراء تدمر . نرى ذلك في مظاهر الحياة الاجتماعية ، ولا سيما اللغة . فان لغة النبطيين والتدمريين كانت من اللهجات الآرامية[2] . اما لغة الغساسنة ومن اليهم من القبائل الضاربة في بلاد الشام فقد كانت العربية. ولكنها عربية بعيدة عن لسان قريش الصافي بسبب ما كان فيها من المفردات والتراكيب الآرامية ، والآرامية لغة الغساسنة الطقسية ، وهم من اليعاقبة كما لا يخفى. وهذا الاختلاط في اللغة مما يوضح انه لم يقم شاعر واحد من عرب الشام قبل الإسلام. حتى كان الغساسنة اذا ما اهتزّوا لسماع المدائح العربية اتاهم الشعراء من نجد والحجاز واليمامة فتبارى في منازلهم حسّان والاعشى والنابغة وحدهم ، لا يقوم شاعر واحد من غسّان فينافسهم . . .

والى جنب هذه العربية المشوبة ، القليلة الانتشار في بلاد الشام ، كانت المناطق السورية باكثرها تتكلّم اللغة الآرامية التي اوصلها المرارنة حتى الى جبال لبنان ، فاصبحت لغة الشعب الجارية في معاملاته ومرافقه المدنية ، وفي القيام بشعائره الدينية ، من الشمال الى الجنوب ، من انطاكية الى اورشليم فغزّة . وكانت اليونانية لغة رجال الثقافة وسراة القوم وارباب المصالح العامة. واللاتينية لغة الجيش والمحاكم.

ثم ان هؤلاء العرب نصف المتحضرين في اطراف الشام لم يكونوا على صلة

---

١) راجع، في ما تقدّم، الاب لامنس: سورية في زمن الفتح العربي. المشرق (٣٠ [١٩٣٢] ١٠-١٦)

٢) وللاستاذ كانتينو الابحاث القيّمة في لغة التدمريّين، راجع خاصّة:

J. Cantineau, *Le dialecte arabe de Palmyre*, Beyrouth, 1934.

- *Nabatéen et Arabe*, Paris, 1935.

احترام بعرب الحجاز ، وهم يدعونهم «حَرَشة الضباب وأكَلة اليرابيع» ، كما ان الحجازيين كانوا يبادلونهم هذا الاحتقار فيزدرون المتحضرين «ويتشاءمون» حتى بالريح الهامّة عليهم من «الشام» . وكثيرًا ما خلط شعراؤهم بين سكان سورية الاصليين ، ورجال حكومتها من البيزنطيين ، فجمعوهم كلّهم بلقب «الروم» ، واطلقوا على المقاطعات الشامية اسم «بلاد الروم» . ومن اوضح الادلّة على دحض نظرية دي گويه (de Goeje) ان معظم الجيش البيزنطي الذي حارب غزاة العرب في اجنادين واليرموك كان من عرب الشام النازلين في تلك النواحي الشرقية - الجنوبية ، على نحو ما قدّمنا.

ولا بدّ ، في ذكر سكان سورية زمن الفتح العربي ، من الإشارة الى السامريين المنكمشين على انفسهم في منطقة «السامرة» من فلسطين . وقد كانوا وافري العدد اذ ذاك حتى استُنتج من اقوال بعض المؤرخين انهم بلغوا نصف مليون[1] . وليس بثبت. ومهما يكن من أمر فانهم كانوا يفوقون اليهود عددًا ومنعةً . واما هؤلاء فكانوا يقيمون خاصّةً في بلاد الجليل . وهناك ، في شمال سورية ، كانت تعيش طائفة من المانوية ، قد يكون يزيديّو عصرنا من بقاياهم.

واذا استثنينا اليهود والسامريين والمانويين ، رأينا جميع سكان البلاد الشامية من النصارى. الّا انها نصرانية منقسمة طوائفها بعضها على بعض ، متفرّعة في اكثرها عن بدع القرن الخامس. وكان اكثر هذه الطوائف عددًا الارثوذكس او الملكية ، ظلّوا على هذا التفوّق حتى عهد الامبراطور هِرَقل ، فأخذ شأنهم يتضاءل ، لأن الامبراطور المذكور كان يقول بالمشيئة الواحدة ويتعصّب لها. فعزّز البدعة المونوتيلية. واذا بطائفة جديدة تدخل المعركة مع ما كان من نساطرة ، ويعاقبة ، وملكية ، ومارنة . فتزداد المشاحنات الدينية ، وتبلغ الى اعماق الشعب ، مبلبلةً الافكار من ادنى طبقات السرقة حتى الامبراطور نفسه — وقد كان غائصًا في ادقّ المناظرات اللاهوتية عندما كان تؤاده يندحرون امام العرب —

---

١) راجع الاب لامنس: سورية في زمن الفتح العربي (المشرق ٣٠ [١٩٣٢] ١٥)

متجاوزةً المجادلات الكلامية الى الاخـذ بانواع الاضطهاد الجائر . مما اضطرّ الموارنة الى ترك السهول الخصبة والاعتصام بجبال لبنان المنيعة. وعلى هذا النوع كانت المشاحنات الدينية بين اليهود والسامريين.

هذه حالة الشعوب المختلفة في البلاد الشامية ، قُبيل الفتح العربي ، فكيف كانت حالة المسلّطين عليها ، اي البيزنطيين ارباب الجيش والحكومة ؟ وكيف كانت علاقة الشعب برجال حكومته ؟

خلاصة ما يُستنتج من الدروس التاريخية الصحيحة ان بيزنطية عملت على تنفير الشعب منها ، إمّا بالاضطهاد الديني الذي اثاره هرقل على اليهود اولًا ، ثم على جميع النصارى المنتمين الى غير نِحلته ؛ وإمّا بارهاق المكلّفين بالضرائب التي احتاجت اليها الدولة في حروبها المتواصلة مع الفرس.

اما الجيش فلم يبقَ له من الجيش الروماني القديم الّا الاسم[1] . رجاله من المرتزقة لا يحمون ثغرًا بدافع وطني ، ولا يتحملون وقعةً باخلاص ، وإطاره مضطرب التنظيم ، وقوّاده من المستهترين بشأن العرب ، وقد تعوّدوا مثل غزواتهم في ما سبق ، يقومون بها على اطراف الشام فيستاقون بعض المواشي ويرجعون الى بلادهم. حتى اصبحت تلك الغارات ، في عرف قوّاد الجيش ، من « حوادث الحدود » البسيطة. فلم يهتمّوا بها ، هذه المرّة ، الا بعد فوات الحين، وقد تحققوا ان المتنبين لم يرجعوا على عادتهم، بالأسلاب الى بلادهم. بل اقاموا في المناطق البيزنطية اذ لم يخرجهم منها احد، بل توغّلوا فيها اذ لم تصدّهم عنها حامية.

هذه المقدّمات المقتضبة كانت ضرورية لفهم ذاك الاتفاق السريع الذي حصل بين العرب الداخلين وابناء الشام ، واكثرهم نصارى ، فلم يروا في الفاتحين اعداء ولا غزاة. انما رأوا فيهم اولًا ــ لا « اخوانًا » مخلّصين كما وهم دي گويه ــ بل مريحين من دولة شديدة الوطأة افقرتهم بضرائبها وضايقتهم بمشاحناتها الدينية.

***

وكان ما كان من دخول العرب دمشق وسائر المدن الشامية على ما هو

---

١) راجع، في هذا البحث، الاب لامنس: فتح العرب سورية والجيش البيزنطي (المشرق ٣٠ [١٩٣٢] ٢٢٧-٢٤٧)

مشهور. بيد ان هناك حادثة لا بأس بالتعرّض لها بشيء من التمحيص. هي رواية فكهة تناقلها المؤرخون الشرقيون، حتى بعض المعاصرين منهم، بفضل ابن عساكر، وتناقلها بعض الغربيين بفضل فون كريمر (von Kremer)، وهي القائلة بان خالد بن الوليد دخل مدينة دمشق عنوةً من الباب الشرقي، وابا عبيدة دخلها صلحاً من باب الجابية، فالتقيا في وسط كنيسة القديس يوحنا، فقُسمت الكنيسة بين المسلمين والنصارى (كذا!)

قد يختلف الإخباريون في ذكر الباب المدخول صلحاً او عنوةً، وقد يختلفون كذلك في ذكر القائد الداخل أكان خالداً ام ابا عبيدة. ولكنهم مجمعون على «الصلح والعنوة» وعلى التقاء القائدين، إما في وسط المدينة او في وسط الكنيسة، وهو الأشهر...

قلنا: أوَ ليس في ضعف التصوّر باختراع هذه الحكاية ما يربأ بالمؤرخين ان يردّدوها، ولا سيما في عصرنا وقد نُشرت الوثائق والاسانيد القديمة جميعها تقريباً فاستنتج منها الاختصاصيون ما كان يخفى على الإخباريين والمتطرّفين بالتاريخ! أو لا نرى هنا أثر النزعة المدنية التي ترمي الى إشراك ابي عبيدة في هذا الفتح المهمّ في الاسلام! وهي التي رمت فعلاً، في ما بعد، الى وضعه موضع خالد، عندما تولّى الخلافة عمر بن الخطّاب، فكان اول ما عمله ان عزل خالداً وعيّن صديقه ابا عبيدة مكانه. ولقد كان في خطة الثلاثة: ابي بكر، وعمر، وابي عبيدة ان يخلف هذا الأخير عمر كما خلف عمر ابا بكر، لولا ما كان من طاعون عمواس! ولنا في ما نشره البرنس كايتاني في التاريخ الاسلامي القديم من شهادات مؤرخي العرب، واكثرهم من ذوي النزعة المدنية، الى اقوال مؤرخي الفرس والسريان والروم، ما يؤيّد دحضنا للاسطورة المتقدّمة الذكر. ومنه يستخلص انه لما فُتحت دمشق، لأول مرّة، في ايلول ٦٣٥، كان ابو عبيدة بعيداً عنها، وهو لم يأتِ الشام الّا في السنة التالية[1].

١) راجع فصل كايتاني المنون *La Campagna araba in Siria durante gli anni* 14 *b.* e 15 *b.* : *il problema dei due assedi di Damasco.*
في L. Caetani, *Annali dell'Islam*, III, pp. 326-402

اما الغاية من هذه الاسطورة فقد تكون تبريرًا متأخرًا لما قام به الوليد بن عبد الملك من نزع كنيسة القديس يوحنا وتحويلها الى الجامع. وذلك ان قسمة الكنيسة بين المسلمين والنصارى اصبحت ، في نظر النقد الحديث ، من الروايات المشكوك فيها ، ان لم نقل من الاساطير المفروغ منها[1] . وقد يكون المؤرخون خلطوا سهرًا بين فتحي دمشق : الاول على يد خالد ويزيد بن ابي سفيان في ايلول ٦٣٥ ، والثاني على يد ابي عبيدة في كانون الاول ٦٣٦ ، فجعلوا هذا الى جنب خالد وبينهما اربعة عشر شهرًا .

بيد ان ما يهمنا خاصة في هذا البحث هو ان نعرف مَن قام بالمفاوضات بين اهل الشام والجيش العربي. ونحن نجهل مَن كان حاكم المدينة بعد ان رحلت عنها الحامية البيزنطية.

يقول البلاذري ان القائم بالمفاوضات كان اسقف دمشق ، ولا يذكر اسمه. ويقول سيف بن عمر ان اسمه نسطاس . ويقول اوطيخوس ، المؤرخ البيزنطي ، ان الذي قام بالمفاوضات ، « فخان المدينة والامبراطورية » ، انما هو منصور بن سرجون ، عامل هرقل .

ومنصور بن سرجون اسم اشتهر على عهد البيزنطيين ، وسيشتهر مدة على عهد الامويين ، حتى يشتهر طويلًا في تاريخ الكنيسة بشخص حفيده ، القديس يوحنا الدمشقي .

كان منصور مديرًا لمالية دمشق منذ اواخر عهد الامبراطور موريقي ، اي من اواخر القرن السادس . على ان ولاية دمشق لم تكن تشمل سورية بكاملها ، انما كانت محصورة بما دُعي فنيقية اللبنانية . فلما اخلى الجيش البيزنطي دمشق ، اصبح منصور من اهم الشخصيات فيها . واذًا فليس من عجب بان يعهد اليه الاهلون في مفاوضة الفاتحين بالاشتراك مع اسقفهم . اما نسبة « الخيانة » اليه

---

١) يمكن ان يُراجع في ذلك : H. Lammens, *Le Calife Walid et le partage de la Mosquée des Omayyades, à Damas*. Dans *Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, 1930, pp. 269-305

فليست غريبة من اوطيخوس المنتمي الى غير نحلته ، والمؤرخ الحوادث من الجهة البيزنطية .

واذا ترفعنا من هـذه النزعات الحزبية نرى ان منصورًا برهن عن حبّ وإخلاص لأهل مدينته اذ فاوض العرب ، مستعينًا باطلاعه الواسع على لغتهم وعاداتهم ، وبمعرفته لرغائب بني نوعه . فاظهر مقدرةً عجيبة في تحقيق شروط التسليم . حتى كأنه كان هو الذي يفرض الشروط على الفاتحين . فنال العهود بان العرب يخلون كل ما للدماشقة من ارزاق وبيوت ، ويحترمون عقائدهم الدينية وعاداتهم وكنائسهم وشعائرهم ، مكتفين بجزية قليلة .

ولا شك انه في تلك الأثناء ، واجه ، للمرة الاولى ، القائد يزيد بن ابي سفيان ، اخا معاوية . ومن الراجح ان المفاوضة كانت مع يزيد ، لا مع خالد ، وذلك انه يُستنتج من بعض روايات البلاذري ان يزيد سبق خالدًا الى دخول دمشق فالتقيا بالمقسلاط[1] . وقد لا نخطىء الواقع اذا قلنا ان مهارة منصور وبلاغته ، ولا سيما خبرته بالشؤون المالية اثّرت في يزيد كل التأثير . ولا يخفى ان يزيد من افراد تلك الأسرة المالية الكبرى التي انبتت ابا سفيان ، أشهر من يُذكر بين الرأسماليين وارباب القوافل العظيمة في مكة . فكان ان يزيد لم يُعين والياً على دمشق حتى سلّم منصورًا ادارة الاموال .

ثم حدث ان هرقل جمع جيشًا جديدًا فتراجع العرب عن دمشق مدةً . وعادوا الى حصارها ثانيةً بقيادة ابي عبيدة . حتى فتحت المدينة ابوابها في كانون الاول ٦٣٦ . وكان في شروط الصلح ان المسلمين يتركون للنصارى خمس عشرة كنيسة ضمن الأسوار .

وظلّ ابو عبيدة على قيادة الجيش حتى طاعون عمواس . فكان من اولى ضحاياه . فعيّن عمر مكانه يزيد بن ابي سفيان ، الذي شاء مؤرخو العباسيين ان يخمدوا ذكره ، على ما ابداه من بلاء في الفتوح الشامية . وعيّن مكان يزيد على ولاية الشام اخاه معاوية . وولاية الشام اذ ذاك مقسومة الى كورا او مقاطعات تسمى

---

١) البلاذري : الكتاب المذكور ، ١٢٤

الواحدة منها جُندًا . فكان هناك جند دمشق ، وجند حمص ، وجند فلسطين ، ويذكر بعضهم جند الاردنّ . ولم تكن دمشق عاصمة هذه الولاية ، انما كانت العاصمة العسكرية الجابية في الجولان ، من قرى الغساسنة القديمة . يقيم فيها الحاكم العام جامعاً بين يديه السلطات كلها من تشريعية وتنفيذية وعسكرية . وله نواب عسكريون في المدن السابقة الذكر ، يراقبون عن كثب سير الاعمال الحكومية ، وقد تركوها ، على الغالب ، في ايدي اربابهـا من اهل البلاد النصارى ، كما كانت على عهد البيزنطيين . فلم يمسّوا بشيء النظام القضائي ولا المؤسسات البلدية الخاصة . فظلّ للوطنيين لغتهم ، ودينهم ، ومحاكمهم ، و « احوالهم الشخصية » ، كما نقول اليوم ، وعاداتهم وتقاليدهم . وظلّوا يديرون بلادهم بأنفسهم فينظّمون شرطتهم ، ويقومون بمشاريع الريّ ، وبناء الجسور ، وفتح الطرق ؛ والخلاصة أنهم ظلّوا مستقلّين ادارةً داخلية عن الجيش الداخل[1] . حتى ان الفاتحين لم يهتموا بفئة جديدة من الشعب نشأت من هذه الحالة الجديدة . وهي فئة الموالي ، اي المسلمين من غير العرب ، فلم يعرفوا ايّ شريعة يطبّقون عليها ، وقد خرجت عن احكام النصارى ، سكّان البلاد ، ولم تحصل على المساواة التامّة بالعرب المسلمين . وهكذا ظلّ الموالي مدةً طائرين .

ولم يكن همّ الفاتحين ، اول الأمر ، الّا الادارة المالية ، لكثرة ما كانوا يحتاجون اليه من المال في الحروب المتتابعة . كان عليهم القيام بهذه الحروب . وكان على سكّان الشام القيام بتغذيتهم . ولهذا فرضوا ، فوق الخراج ، وهو الضريبة على العقار ، ضريبةً اخرى على الأعناق كانت في اصلها ديناراً على كل بالغ او ، في لغة ذاك العصر ، « على كل من جرت عليه المواسي »[2] . ثم ضوعفت هذه الضريبة على متوسطي الحال ، ورُتّبت على الاغنياء[2] . اما تنظيم فرض الضرائب فكان على اساس ملكية الاراضي ابّان الفتح ، وعلى اساس عدد الذمّيين . وعليه فلا نستغرب ان نرى الجباة يتذمّرون احياناً اذ يرون بعض

١) قابل بما في Lammens, *La Syrie*, I, 61-62

٢) راجع في « الجزية » و « الخراج » بحثين للاستاذ بندلي جوزي في « المقتطف » ايار ١٩٣١ ، و « الكلية » تشرين الثاني ١٩٣١

الذميين يجنحون الى الاسلام فيتخلصون من اداء الضرائب ، وبالتالي تضطرب موازنة اولئك الجباة ، فترهقهم الادارة المركزية . حتى شكوا الأمر الى الخليفة . فكتب عبد الملك الى عمّاله يأمرهم بان يتلافوا النقص في عدد الذميين ، وان اضطرهم الأمر الى منعهم عن الإسلام . وكذلك كان فعل يزيد الثالث . فأين هذا من القول السائر في كتب بعض المؤرخين من ان العرب اجبروا أهل الشام على الديانة بالاسلام !

* * *

في السنة ٦٣٩ تسلّم معاوية ولاية الشام . وكأنه رأى بثاقب بصره ان مستقبل الدولة الجديدة سيكون متجهاً الى الشمال والى الغرب ، فانتقل من الجابية الى دمشق . وهمّه امران : تحضير البدو ، ومقاومة بيزنطية . ومعاونوه في هذين الأمرين النصارى : عرباً كانوا او غير عرب .

اما تحضير البدو فنجح فيه بعض النجاح ، على صعوبته . نتحقق ذلك اذ نرى ان المعسكرات الاصلية في الجابية ، وعمواس ، ودابق ، لم تلبث ان اقفرت ، وانتقلت مراكز الحكم الى المدن كدمشق ، وحمص ، وغيرهما . بيد ان العمل كان صعباً ، كما قدّمنا ، لأن البدو نافرون فطرياً من حياة الحضر . لا يجدون فرصةً للرجوع الى بواديهم الّا اغتنموها . ولا عجب . فان اموراً كثيرة كانت تحول بينهم وبين الحياة الجديدة : عاداتهم القبلية تغاير هذه العادات الحضرية . مناخ بلادهم الحارّ الجافّ يختلف عن مناخ الشام ، ولا سيما دمشق ، بما فيه من رطوبة ناشئة عن المياه الغزيرة . وكان هذا المناخ الرطب يؤثر في اجسامهم المعوّدة الجفاف فيحدث فيها بثوراً ودماميل حتى اصبح عندهم من الأمثال الجارية القول عن « دماميل الشام وطواعين الجزيرة » . وكان الجنود ، حتى في اواسط العهد الاموي ، وقد عُوّدوا الاقامة في تكنات المدن ، اذا ما اراد القائد مكافأتهم على عمل مذكور ، سألوه الاذن بالرجوع الى باديتهم . وحتى رأينا امرأة معاوية نفسها ، ميسون الكلبية ، على الرغم من حياتها المحفوفة باليسر والهناء في البلاط الملكي ، تحنّ الى حياتها البدوية ، فتنشد تلك الابيات المشهورة :

وبيت تخفق الارياح فيه أحبُّ اليَّ من قصرٍ منيفِ !
ولبس عباءةٍ ، وتقرَّ عيني ، أحبُّ اليَّ من لبس الشفوفِ !
واكل كسيرةٍ في كسر بيتي أحبُّ اليَّ من اكل الرغيفِ !
واصوات الرياح بكل فجٍّ احبُّ اليَّ من نقر الدفوفِ !
وكلبٌ ينبحُ الطرّاقَ دوني احبُّ اليَّ من قطٍّ ألوفِ !
وبكرٌ يتبع الأظعان صعبٌ احبُّ اليَّ من بغلٍ زَفوفِ !
وخرقٌ من بني عمي نحيفٌ احبُّ اليَّ من بطجٍ عنيفِ !

ولنشر حالًا الى ان هذا البيت الأخير غير وارد في الروايات القديمة لابيات ميسون[1] . أوَ تكون الرقابة العباسية عملت عملها حتى في هذا الشعر ، فنعتت معاوية « بالعلج العنيف » ! !

ومهما يكن من أمر فان معاوية استعان في مشروعه العظيم هـذا ، اي تحضير البدو ، بقبيلة ميسون نفسها ، وهي نصرانية ، وبسائر القبائل النصرانية العائشة في اطراف الشام عيشةً وسطًا بين البدو والحضر ، والتي كانت قد حالفت الغساسنة في ما سبق ، وتعوّدت النظام العسكري على عهد البيزنطيين ، كبني تغلب ، وبني جُذام ، وبني كلب وما تفرّع عنها من البطون والعشائر . فاتكل عليهم ، وجعلهم قوّاد جنده يعلّمون البدو « طاعة اهل الشام » التي كثيرًا ما يذكرها فيمدحها مؤرخو العرب كالبلاذري والطبري ، والتي لم تكن معروفة في تلك الشراذم القادمة من الحجاز .

وهكذا عمل النصارى العرب على تنظيم الجيش ، مادّة القتال ، فمكّنوا معاوية من ان يرمي بنظره الى أبعد مما تصوّره الخلفاء الراشدون ، الى ناحية المدنية الغربية ، الى تلك الامبراطورية العظيمة التي كانت تقوم حاجزًا هائلًا بين الدولة الجديدة والاتساع ، الى بيزنطية . رمى بنظره الى تلك الامبراطورية فطمع فيها . ولكن كيف حقّق بعض مطامعه ؟ وكيف توصّل وهو لا يزال واليًا ، الى خلق حكومة اصبحت مثالًا للحكومات ؟ ذلك ما نفهمه اذا ذكرنا ما قام به النصارى من غير العرب .

كان قد خلا الجوّ لمعاوية بوفاة ابي عبيدة وخالد بن الوليد وغيرهما من

---

١) الطلب Lammens, *Mo'āwia*, 313

القوّاد ؛ وبرحيل عمرو بن العاص الى مصر ، وبمقتل عمر بن الخطّاب ، وبارتقاء نسيبه عثمان عرش الخلافة ؛ فشعر بالاستقلال اللامركزي . ولفطنته في نفسه ، ادرك ان ابناء الشام اقدر من البدو في ادارة الدواوين ولا سيما المالية منها . فوالاهم ومنحهم ثقته تامّةً ، تاركاً لهم حرّياتهم الدينية والمدنيّة المطلقة . فكان أنهم تحقّقوا تساهل الفاتحين ، ورأوا انفسهم لا يزالون على رأس الاعمال في بلادهم . فتابعوا مساعيهم في سبيل ازدهار الوطن . وكان في مقدّمتهم ذاك المالي القدير الذي رأيناه يضبط مالية دمشق ، بل ولاية الشام ، على عهد البيزنطيين ، ثم على عهد الفرس ، ثم على عهد البيزنطيين من جديد ؛ والذي شاهدناه يفاوض يزيد بن ابي سفيان على فتح دمشق فينتزع لها من الفاتحين شروطاً كانت كلّها في مصلحة ابناء وطنه . فيقرّه يزيد في ادارته . ويثبّته معاوية . فيصبح مدير المالية في الولاية كلّها ، حتى يُصبح ، بعد ذلك ، مديراً او وزيراً لمالية الدولة جمعاء . وهو لا يزال على نصرانيّته ، بل على تعلّقه بالنصرانية ، تعلّقاً حمل المؤرّخ تيوفانس على ان يسمّيه « الرجل المسيحي كل المسيحي » ، تعلّقاً تجاوزه الى افراد اسرته فنبغ من حفدته القديس يوحنا الدمشقي ، عنينا به منصور بن سرجون .

القى معاوية بين يديه بمقدّرات الدولة المالية ، فادارها خيرَ ادارة ، منظّماً الموازنة ، ساهراً على جباية الضرائب ، محافظاً على الاموال ، دافعاً الرواتب في حينها ، منتبهاً لجميع الاعمال الاقتصادية .

وكان من الطبيعي ان يسهر على تنظيم اعمال الموظّفين . ومنهم الجيش الدائم فاخذ يهتمّ بتأمين معيشته اولاً ، ثم بتموينه بالمعدّات والذخائر ؛ ثم بتنظيم حركاته وغزواته . وهكذا اصبح ذاك الشيخ المسيحي مدير المالية والحربية ؛ وسيُصبح وزيرهما في تلك الدولة الإسلامية العظمى .

ولم يكن منصور النصرانيَّ الوحيد بين ارباب الدولة . انما ذكرناه لشهرته ولاهمية ما كان يتولّاه من اعمال . وهناك كثيرون غيره من كبار الموظّفين واصحاب النفوذ في البلاط الاموي ، كالطبيب ابن أثال ، صاحب خراج حمص ، على عهد معاوية ؛ « وكان اركوناً من اراكنة النصارى عظيماً » على ما في قرل

ابن عساكر[١] . والراهب ماريانوس مؤدّب خالد بن يزيد ، ومجدل الكلبي عمّ معاوية ، والشاعر الأخطل ، وغيرهم.

وقد جرى رجال الدولة الاموية على خطة معاوية في تكليف النصارى القيام بأهمّ دوائر الحكومة. فرأينا والي المدينة ، مروان بن الحكم ، يؤلّف شرطة أيلة من مائتي نصراني[٢]. واذا انتبهنا لاهمية هذا المرفأ على البحر الأحمر ادركنا مبلغ تلك الثقة التي وضعها مروان في النصارى. وكذلك القول عن الوليد بن عقبة ، اذ عهد بادارة سجون الكوفة الى رجل نصراني[٣]. وعرف الوليد بصداقته للشاعر النصراني ابي زُبيد ، وقد اقطعه بيتاً مجاوراً للجامع . فكان الشاعر ، اذا اراد زيارة صديقه ، بل « اخيه » كما كان يدعوه[٤] ، مرّ في الجامع قاصداً اليه[٥].

* * *

ومن النصارى مَن عاون معاوية في تحقيق مشاريعه الحربية ، وهم غير من ذكرنا من ابناء القبائل النصرانيـة ، معلمي البدو « طاعة اهل الشام » . هم اللبنانيون ، سكّان السواحل والجبال.

اصبح معاوية بمأمن من هجمات بيزنطية البرّية . فبقي عليه ان يتلافى هذه الغزوات من جهة البحر . وادرك انه ما دام المتوسّط مسرحاً للاسطول الرومي فلا سبيل الى الطمأنينة والهدوء في بلاد الشام.

فكيف العمل ، والجيش العربي ليس ببحّار ؟ والبدو ينفرون من البحر ، قائلين بلسان شاعرهم:

طينٌ انا ، وهو ماء ، والطين في الماء ذائب !

اجال معاوية بصره. واذا هناك على الساحل ثغور شهيرة كانت في ما مضى قد استعمرت العالم المتمدّن بسفنها الجبّارة. اذا هناك حفدة الفنيقيين بناة اساطيل صور ، وصيدون ، وأراد ، وقرطاجة ؛ بل بناة سفينة نوح على قول ارباب

١) ابن عساكر: التاريخ الكبير (طبعة بدران ، دمشق ١٣٣٢) ٥ : ٨٠
٢) الاغاني ٦ : ١٥٤ ٣) الاغاني ٦ : ١٥٦
٤) الاغاني ١١ : ٢٨ ٥) الاغاني ٦ : ١٨١–١٨٢

الاساطير العربية[1]

وسرعان ما صمم معاوية على بناء الاسطول العربي. فعهد الى اهل عكا ، وصور ، وطرابلس ، كما يقول البلاذري ؛ فقطعوا الخشب من غابات لبنان ، وبنوا السفن . ولا ضرورة الى القول ان قوّادها وملّاحيها كانوا من اللبنانيين وكلّهم نصارى ، اذ ذاك. اما المقاتلون فكانوا من الجيش السوري . وقد شاء معاوية ان يشجّع عسكره على مجابهة خطر البحر ، فركب هو وامرأته كَنْوَة في اول السفن ، شأنَ رؤساء الحكومات في عصرنا اذا ما ارادوا الاحتفال باتزال باخرة الى البحر . وهكذا كان تدشين اول اسطول اموي بناه معاوية ، وهو لا يزال والياً .

وسار الاسطول اللبناني بسفنه وقوّاده وملّاحيه ، العربي بمقاتلته ، في ارجاء البحر المتوسّط. فاحتل قبرس اولًا سنة ٦٤٩ ، ومعاوية وامرأته على متن احدى سفنه[2]. ثم احتلّ رودس سنة ٦٥٤ . فقلقت بيزنطية ، وجهّزت اسطولها بقيادة الامبراطور كونستان الثاني نفسه. فاتحد الاسطول اللبناني والاسطول المصري — وقوّاد هذا من النصارى ايضاً ، وكذلك ملّاحوه — والتقيا بالاسطول البيزنطي في شاطىء ليدية. وما هو ان احتدمت المعركة حتى قال التاريخ: على الاسطول الرومي السلام ! .

الّا ان هذا الازدهار العجيب في البرّ والبحر ، وهذا التقدّم السريع في ولاية معاوية ، اصطدما بعقبة هائلة في تواريخ الامم هي عقبة الحروب الأهلية.

وكان ما هو مشهور بين علي ومعاوية من وقائع اسفرت عن انتصار الوالي الاموي ، فعن ارتقائه عرش الخلافة.

وقد اختار معاوية اورشليم ، المدينة المقدّسة ، لقبول البيعة . فاجتمع فيها جنده وبايعوه ، بعد ان ذهب فصلّى في معابد المسيحيين التاريخية ، كما ذكر احد مؤرخي السريان في قطعة نشرها نولدكه جاء فيها:

« في السنة ٩٧١ للساوقيين (وهي التي ابتدأت سنة ٦٦٠) اجتمع في اورشليم

---

١) اطلب ياقوت: معجم البلدان (Wüstenfeld) ٢ : ٥٨٨

٢) وقد توفيت امرأته هناك. (الطبري: تاريخ الرسل والملوك (de Goeje) ٣ : ٢٠٥)

عدد كبير من العرب والامراء ليتخبوا معاوية ملكاً . فصعد هذا الامير الى الجلجلة. ثم ذهب الى جتسماني ، والى قبر العذراء مريم ، فصلّى من جديد. . . ثم جعل مقرّ عرشه دمشق ، ولم يشأ ان ينتقل الى مقام محمد»[1] (اي المدينة).

وجرى ، في خلافته ، على سياسته الاولى ، فاستند الى ابناء البلاد ، ولا سيما النصارى منهم، وهم الاكثرية الساحقة ، مظهراً تساهلاً عجيباً. حتى كان بلاطه مسرحاً لزعماء النصارى وكبارهم ، ذكرنا منهم ابناء سرجون ، وعمه مجدل الكلبي ، والد ميسون ، وطبيبه ابن أثال ، والاخطل رفيق ابنه يزيد ، والراهب ماريانوس مؤدّب حفيده خالد.

ومما يدلّ على تساهله ومساعدته للنصارى ما ذكره تيوفانس من ان احدى الزلازل هدمت كنيسة الرها الكبرى . فانفق معاوية من ماله الخاصّ في اعادة بنائها[2] . وكذلك ارتياحه الى وجود ابنه يزيد في صحبة ابن سرجون الذي سيصبح ، في ما بعد ، القديس يوحنا الدمشقي ، وفي صحبة الاخطل ، وصرفه اياه عن معاشرة المغنين من اهل الحجاز ؛ وكذلك رضاه بان يربّي يزيد ابنه خالداً تربيةً نصرانية على يد الراهب ماريانوس.

ومن هذا القبيل ما ذكره ابن قتيبة من ان معاوية كان يُصاب بالأرق في آخر حياته ، فلا يناله النوم الّا قبيل الصبح . وكان الى جنب قصره ، قصر الخضراء بدمشق ، كاتدرائية القديس يوحنا تقرع نواقيسها عند الصباح ، وقت نوم الخليفة فتوقظه وتؤذيه . فاحتمل معاوية هذا اذ لم يرَ لنفسه الحقّ بمنع النصارى قرع نواقيسهم. ولكنه لجأ الى حيلة ظنّها تكفيه مؤونة الألم والأرق. فلما لم تنجح الحيلة صرف النظر عن هذا الأمر.

على هذه السياسة الرحبة جرى يزيد . فكان يستعين بالنصارى في الادارة وفي الحرب ايضاً. وها انه يُرسل جيشاً من نصارى تغلب الى الحجاز لقمع ثورة ابن الزبير. واذا بالتغلبيين يشون ، وامامهم الصليب مرتفعاً وراية مار سرجيس

١) راجع Lammens, *La Syrie*, I, 67

٢) *Corp. script. Orient.*, série III, XIV, 288.Cf. Tritton, *Naṣārā*, dans *Encycl. de l'Islam*, III, 907.

شفيعهم ، على ما يقول الأخطل :

لما رأونا ، والصليب طالعا ، ومار سرجيس ، ونُسّا ناقما . .

حتى يدخلوا المدينة بقيادة مُسلم بن عُقبة . ثم يمشون على مكة يحاصرونها .

وكان من مكافأة يزيد للنصارى ، في اخلاصهم للدولة ، ان رفع عنهم كثيراً من الضرائب . واعاد الى مسيحي نجران حقوقهم في بلاد العرب ، بعد ان كان قد طردهم ظلماً عمر بن الخطّاب .

وقد انقذ النصارى التغلبيون الدولة الاموية مرّةً ثانية ، على عهد عبد الملك ابن مروان ، عندما ثار العراق على الخلافة متضامناً والحجاز ؛ وتحفّزت خراسان للوثوب . فاضطربت الدولة على قواعدها . وانتقل عبد الملك برجاله من دمشق الى بُطنان ، في منطقة حلب ، وسيّر التغلبيين الى الجزيرة ، فكسروا عرب العراق ، وسحقوا بني سُلَيم ، وقتلوا زعيمهم عُمير بن الحُباب ، وحملوا رأسه الى الشام ؛ كما يفتخر الأخطل — وحقّ له الفخر ! — مخاطباً عبد الملك من ابيات رائعة في « خفّ القطين » :

وقد نُصرتَ ، امير المؤمنين ، بنا لما أتاك يطن النوطة المَبِرُ :
يرقونك رأس ابن الحُباب ، وقد اضحى وللسيف في خيشومه أَثَرُ ؛
لا يسمع الصوت مستكّا مسامعه ، وليس ينطق حتى ينطق الحجرُ !
أمست الى جانب المشّاك جيفته ، ورأسه دون اليحموم والصُوَرُ !

* * *

هذه امثلة قليلة من اعمال النصارى في سبيل الدولة الأموية ، ظهرت في مجال السياسة ، والادارة ، والحرب .

وهناك اعمالهم في مجال الشعر ، والعلم ، والمنطق . ويكفي باسماء الأخطل ، وابن أثال ، وماريانوس شاهداً مقنعاً . ولا بدّ من اشارة خاصّة الى الأخطل ، وهو اعظم صحافيي ذلك العصر . نصر الأمويين بلسانه كما نصرهم قومه النصارى بجيوشهم . ولا نبالغ اذا قلنا ان قصائده عملت في نشر مآثر الامويين ، واعلان جدارتهم بحسن الادارة وضبط شؤون الملك :

شمس العداوة حتى يستفاد لهم ، وأعظم الناس احلاماً اذا قدروا !

وفي تهيئة افكار الجمهور للاقرار بحقّهم الالهي :

ويومَ صفّين ، والابصار خاشعةٌ ، أمدّهم ، اذ دعوا ، من رَبّهم مددُ ؟

ما لا تعمله جريدة حكومية مهما يُنفق عليها من اموال الاعتمادات السرّية .

ولم يكن الشاعر النصراني الوحيد ، او الجريدة النصرانية الوحيدة ، من الحزب الاموي . وهناك نابغة بني شيبان . وقف موقفاً في مجلس عبد الملك لا يفرق في شيء عن موقف مسكين الدارمي في مجلس معاوية عندما شاء مبايعة ابنه يزيد .

كان عبدالملك ، في آخر ايامه ، يرمي الى خلع اخيه عبدالعزيز عن ولاية العهد ، والمبايعة بها لابنه الوليد . ولكنه كان يخشى نفور العرب . والعرب لم يألفوا الحكم الوراثي ، على رغم ما بذله معاوية من جهود موفّقة . فجمع عبد الملك المجلس . وكان قد اشار الى النابغة بالقاء اقتراح يسبر فيه افكار القوم فقال النابغة :

آليت جهدًا ، وصادقٌ قسمي ، لربّ عبدٍ بالله يتنصحُ ،
يظلّ يتلو الانجيل يدرسه ، من خشية الله قلبه طفحُ :
لأبنُك اولى بملك والده ! ونجم من قد عصاك مُطّرَحُ !
داودُ عدلٌ فاحكم بسيرته ، ثم ابن حرب ، فاتم نصحوا ؛
وهم خيارٌ فاعمل بسُنّتهم ، واحيِ بخير ، واكدح كما كدحوا !

فابتسم عبد الملك ، ولم يعترض احد من الاعضاء . فنوى الخليفة انفاذ المشروع ، الّا ان موت اخيه عبد العزيز خلّصه من تبعة النقض والنكث .

اما في سبيل الفنّ ، فلنا ، كل مدّة ، من اعمال الأثريات ، برهان جديد على ازدهار الفنّ المحلّي وعلى نبوغ فنّاني النصارى في سورية على العهد الاموي . من هذه الآثار ما كان دينيًّا محضاً فلم يؤثر مباشرةً في اقرار الدولة الاموية . ومنها ما قام به ارباب في تحقيق مشاريع الخلافة ، كبناء الجامع الاقصى في اورشليم لعبد الملك بن مروان ، وبناء الجامع الاموي في دمشق لابنه الوليد ، وبناء قصر الحير في بادية تدمر لهشام ، وبناء قصر المشتى في بادية موآب للوليد بن يزيد بن عبد الملك . وليس من موضوعنا الآن ان نتبسّط في درس هذه الآثار .

انما نستخرج من مظاهر هذا الازدهار المتنوّعة ان حياة النصارى على عهد الدولة الاموية — بل على عهد خلفائها الأوّل : معاوية ، ويزيد ، ومعاوية الثاني ، ومروان ، والقسم الأكبر من خلافة عبد الملك — كانت حياة سعة ورخاء . ولا يخالنّ احد ان هذا الرخاء كان ماديًّا فقط . لا . فان العاطفة

الدينية كانت عميقة لا يحول دون ظهورها شيء. وان الكنيسة الشرقية لتفتخر بكونها عدّت ، في العصر الاموي ، ثلاثة من اشهر نوابغ النصرانية هم : صفرونيوس بطريرك اورشليم ، والقديس يوحنا الدمشقي ، والقديس اندراوس اسقف اقريطش.

على ان عبد الملك بن مروان شاء ان يبدع امرًا جديدًا . فرمى الى تعريب مراتب الدولة ودوائر الحكومة.

تعريب الدولة من حقّ الخليفة العربي ، بل من واجبه ، اذا فهمنا به اقرار اللغة العربية في الدواوين مكان الرومية والقبطية. وما كان احد ليلوم عليه عبد الملك، لولا ما بالغ فيه خلفاؤه من ضيقي الصدر ، فاساؤوا فهم غايته وخلطوا بين تعريب اللغة ، وتعريب الاعمال والدوائر ، كما خلطوا بين العروبة والإسلام. فاخذوا ، بحجة التعريب ، يستبدلون المسلمين العرب بالذمّيين ، وان كانوا عربًا ، او بغير العرب ، وان كانوا مسلمين. حتى دبّ الفساد في الدوائر ذوات الاختصاص ، فاضطرب نظام الحكم . يؤيد هذا ما نعرفه من اجوبة الولاة وشكاويهم سوء الحالة الجديدة وهذا قول للخليفة سليمان بن عبد الملك عن الموظفين النصارى ، وقد تحققت ضعف الادارة على اثر تنحيتهم عن دوائرها ، قال: « لم نستغن عنهم ساعة. وهم لم يحتاجوا الينا ساعة واحدة في سياستهم ».[1]

هذا العمل في « تعريب » الخلافة كان الحجر الأول في بناية التعصب القومي والديني: التعصب القومي الذي ادّى الى نفور الموالي المسلمين انفسهم من العنصر العربي ، وعمل على قتل الوحدة الاسلامية بل قتل الخلافة العربية بظهور بني العبّاس. والتعصب الديني الذي ادّى الى اتساع شقّة الخلاف بين العنصرين المهيّئين في الدولة الاموية الزاهرة.

لا نقول ان الشقاق بدا في عهد عبد الملك. انما نشير الى ان هذا الخليفة بذر بذوره — وقد يكون عن غير قصد — فنمت على عهد ابنه الوليد الذي تابع سياسة ابيه . فعزل اكثر الموظفين النصارى ، ونزع ادارة المالية من آل سرجون ، بعد ان اضطلعوا بها ، على غاية ما يُرجى من الدقة

(١) ابن عساكر: الكتاب المذكور ٣: ٢٧

والامانة والاخلاص ، مدة قرن كامل . وكان يدفع الوليد الى ذلك ، فوق ما عرفناه لأبيه من نزعة قومية ، ما اتصف من حب التسلط ، وما كان يظهره من التقوى الخارجية ، والمجاهرة بالعبادة مما لم يرَه عند واحد من سلفائه

والى عهد عمر بن عبد العزيز فاتسعت حركة « التعريب » . فتضاءل شأن الوطنيين ، وانشقت عناصر الدولة حتى ادّى الانشقاق الى هبوطها واضمحلالها . فما بدت الراية السوداء من ناحية الزاب الأعلى حتى امكن الشاعر العربي نصر بن سيار ان يقول :

فقرّي عن رحالك ، ثم قولي : على الاسلام والعرب السلامُ !

هذا ملخّص ضئيل لبعض ما قام به النصارى في ذاك العهد بسطناه سهلًا على امل ان يُغتفر ما فيه من جفاف واقتضاب .

وان يكن من عبرة نتّخذها من هذا التاريخ — والتاريخ ابو العبر ! — فهي ان ازدهار البلاد لا يكون الّا بالتساهل والتعاون .

اهم ما أخذ البحث

البلاذري : فتوح البلدان (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٦٦

الطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goeje) ليدن ، ١٨٧٩—١٩٠١

الواقدي : كتاب المغازي (طبعة von Kremer) ١٨٥٦ ، طبعة القاهرة ، ١٨٦١

ديوان الاخطل (طبعة صالحاني) بيروت ، ١٨٩٠

جورج مرعي حدّاد : فتح العرب للشام ، بيروت ، ١٩٣١

الاب هنري لامنس : اسرة القديس يوحنا الدمشقي (المشرق ٢٩ : ١٩٣١)

الاب هنري لامنس : كيف صارت دمشق عاصمة (المشرق ٢٩ : ١٩٣١)

الاب هنري لامنس : لماذا افتتح العرب سورية (المشرق ٣٠ : ١٩٣٢)

الاب هنري لامنس : فتح العرب سورية والجيش البيزنطي (المشرق ٣٠ : ١٩٣٢)

الاب هنري لامنس : سورية في زمن الفتح العربي (المشرق ٣٠ : ١٩٣٢)

de Goeje, *Mémoire sur la conquête de Syrie*, Leyden, 1900

H. Lammens, *Etudes sur le règne du Calif omaiyade Mo'âwia I^er*, Beyrouth, 1908

L. Caetani, *Annali dell'Islam*, III, Milano, 1910

H. Lammens, *La Syrie, précis historique*, I, Beyrouth, 1921

H. Lammens, *Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, 1930

A. S. Tritton, *Naṣārā*, dans *Encyclop. de l'Islam*, III.